في الدلالة الثقافية للوحدات الصوتية الصغرى دراسة لسانية أنثروبولوجية

أ.م.د. جواد كاظم التميمي كلية الإمام الكاظم (ع) للعلوم الإسلامية الجامعة/ قسم اللغة العربية
dr.jawadkadhim@alkadhum-col.edu.iq

أولا: الملخص

اللغة مثوى البنى الثقافية للجماعات البشرية(1)، وهي وسيلة الإيصال والتواصل، وتبادل التأثير بغض النظر عن عدد المورفيمات المستعملة في الكلام، ومن الأحكام العلمية الشائعة في الدراسات اللسانية أنّ النشاط البشري اللساني متحقق بما يتداوله المتكلمون من جملٍ، ونصوصٍ، وهذا شيء صحيح إلى مدًى واسع، بيد أنّ الأمر له تفصيل آخر، فثمة أنشطة لسانية مرتبطة بوحدات صوتية صغرى، ومنها: (الفونيم)، و (المقطع القصير)، وهما الوحدتان المعبَّر عنهما في الدرس التراثي العربي: بـ (الحرف الساكن)، و (الحرف المتحرك)، فلهذين النوعين من الوحدات الصوتية آثار عميقة في مستوى العلاقات البشرية، يتفوّقان فيها أحياناً على النصوص، والجمل، وتتجسد كينونتهما الأنثروبولوجية في تمثيلهما لممارسات بشرانية تصنيفية شديدة، على مستوى الأفراد، والجماعات، كما أنَّ بعضاً من مصاديقهما يتجلى إلى الوجود بوصفه عنصراً مؤسِساً لشروخ ثقافية، ذات صبغة بنيوية متصلبة، وصراعات عَقَدية عنيفة، أفضى بوجهٍ من الوجوه إلى تبادل التكفير بين الناس على مستوى الإيمان

(1) الثقافة بحسب تعريف عالم الأنثروبولوجيا البريطاني إدوارد بارنات تايلور (ت 1917) ((هي هذا الكل المركب الذي يشمل المعرفة، والمعتقدات، والفن، والأخلاق، والقانون، والعادات، وكل القدرات، والعادات الأخرى التي يكتسبها الإنسان بوصفه عضواً في المجتمع)) مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية (دنيس كوش) 30 – 31.

الديني، وهو النشاط الفكري المفضي إلى تسعير الحروب الطائفية الطاحنة.

تهدف هذه الدراسة - بمنظورها اللساني الأنثروبولوجي -إلى الكشف عن كون الوحدات الصوتية الصغرى مائزاً ثقافيًّا بالغ التأثير في الحياة الإنسانية، كما أنها تسعى، في غاية أخرى مرادفة، إلى تبيان أنَّ وحدات كهذه، قد تكون وسيلة من وسائل القمع اللغوي الصوتي (الفونيمي) للأفراد المصابين بمشكلةٍ نطقيةٍ ما، كاللكنة، واللثغة، والفأفاة، والتأتأة.

وكيفما كان البحث فإنَّ هذه الوحدات تتمظهرُ معياراً قاسياً للتصنيف الفردي، والعرقي، والمناطقي، والطبقي، للبشر.

نبحث في هذه الدراسة -من أجل السعي إلى تحقيق الهدف- في الآثار المرتبطة بعدد محدود من العينات الصوتية الصغرى، المهمة اللافتة للنظر المعرفي، من دون الذهاب إلى خطوة تقصي الظاهرة في جميع مصاديقها، وسنقوم -لأجل تكريس حضور المنظور اللساني الأنثروبولوجي على المستوى البشري العالمي- بتنويع نماذج البحث الدراسي، لتكون عربية تراثية مرة، وإسلامية عقائدية أخرى، وعراقية، وعالمية، مرة ثالثة، ورابعة، فكلما تباينت المصاديق، وضَعُفت الروابط المكانية، والزمانية فيما بينها، وتشعبت وحواضنها الحضارية، مع بقاء وحدة الأثر، كان المطلب الثقافي لها قد تحقق بأفضل الصور الممكنة، وأمكن - بذلك- تجريد البنية الثقافية البسيطة المنتِجة للفعل اللساني الصوتي على مستوى الجماعات البشرية كافة، وهذا أثمن ما تسعى إليه اللسانيات الأنثروبولوجية[1] في بحثها الدؤوب عن محركات الفعل البشري في العالم.

الكلمات مفتاحية: ثقافة، ووحدات صوتية، ولسانية، وأنثروبولوجية.

On the Cultural Significance of Smaller Phonological Units: An Anthropological Linguistic Study

ABSTRACT

Language is the lodgment of the cultural structures of human groups and is

(1) اللسانيات الأنثروبولوجية: هي دراسة الكلام واللغة، بوصفهما ممارسة ثقافية، في سياق الأنثروبولوجيا. ينظر: الأنثروبولوجيا الألسنية (دورانتي)21-22.

a means of communication, contact and mutual influence regardless of the number of morphemes used in speech. It is one of the common scholarly judgments in the linguistic studies that the human linguistic activity occurs through the speakers' use of sentences and texts and this is true to a large extent but the issue has a different dimension. There are some linguistic activities that are related to small phonological units like phonemes and short syllables which are referred to in the Arabic heritage as consonants and vowels. These two types of phonological units have great effects at the level of human relations, which sometimes outperform the sentences and texts.

Their anthropological existence is illustrated in their representation of severe classificatory human practices at the individual and the group levels. Also, some of their instances exist as an element laying the basis for cultural divides with solid structural nature and violent dogmatic struggles that led to mutual atonement in relation to religious faith which is the intellectual activity that leads to the acceleration of the intense sectarian wars.

The study aims-in its anthropological linguistic perspective-to reveal that the smaller phonological units are a highly effective factor in the human life. The study also attempts, in a parallel end, to show that units like these may be one means of linguistic phonological suppression to those who suffer from some pronunciation defect like faltering, lisping, stuttering and stammering.

Whatever the search was, these units manifest themselves as a harsh standard of individual, ethnic, regional, stratified classification of people.

This paper is investigating the effects related to a limited number of small phonological samples which are significant and intellectually noteworthy without considering all the instances of the phenomenon. We will- for the sake of consolidating the presence of the anthropological linguistic perspective at the global human level- vary the study samples to include Arabic hereditary,

Islamic dogmatic, Iraqi, and global instances. As the instances differ, their time and place connections weaken, their cultural incubators diverge, with the effect being stable, their cultural aim is achieved in the best possible way. Accordingly, it will be possible to abstract the simple cultural structure that produces the linguistic phonological act at the level of all human groups and this is what anthropological linguistics seeks in its diligent search for the motives of the human act in the world.

Key words: Culture, Phonological units, Linguistic, Anthropological

ثانياً: محاولة تأصيل معرفي (إبستيمولوجي)

يستطرد البشر كثيراً في الأفعال المفضية إلى تصنيف أنفسهم، بقصد الحصول على هوية متفردة، تفاضلية، تمنحهم مزية الاختلاف، ما يعني مزيداً من قوة الحضور في العالم ببعديه الطبيعي، والوجودي بالمعنى (الأنطولوجي)، ويتمظهر هذا التصنيف على صُعُدٍ حياتية؛ مادية ومعنوية شتى. وكانت محاولات التصنيف اللغوي، ذي الدلالة العرقية تستعر -في التاريخ القديم- استعاراً منقطع النظير في ثقافات الشعوب، مستعملةً -في إنجاز المهمة التصنيفية- أسماءَ الأعلام، بوصفها علامات سيميائية ذات دلالة قمعية تعسفية، فقد أطلق الإغريق مصطلح (البرابرة) على الشعوب التي لا تتكلم الإغريقية (كالفي، 2008م، 102)[1]، وكان اليهود، وما زالوا يقسّمون البشر إلى يهود وأغيار، أو شعب الله المختار، والأغيار الذين لا حظ لهم من القداسة (المسيري، 2006م، ينظر: 2/ 53)، وكان العرب يطلقون مصطلح (العجم) على الشعوب التي لا تتكلم العربية (ابن منظور، ينظر: 12/ 385)، ويستشري هذا الأمر في سائر الجماعات البشرية اللغوية القاطنة حول البحر الأبيض المتوسط[2]، ولأن ذلك كذلك فلا غَرْوَ

(1) و ((قد سمى اللاتينيون بدورهم (برابرة) كل الشعوب الأخرى باستثنائهم هم والإغريق)) المصدر والصفحة أنفسهما.

(2) ينقل التاريخ عبارات تدل على عدم تقدير لغة الآخر، مثال ذلك في الفرنسية (Qu'est-ce que c'est

في أنَّ الجماعـات البشرية الثانوية، المشـكِّلة لجماعة بشرية واحـدة كبرى، تلجأ –بحكم الميل الطبيعي لتعميم قاعدة التمايز[1]– إلى تكريس هوياتها الطرفية الثانوية الخاصة بها، باستثمار علاماتها اللسانية، والسيميائية، ذات البعد التصنيفي المحلي، فتنشأ بعمل كهذا فرص احتراب لهجي ثقافي واسع بين المدن، أو بين الأقاليم، أو بين الجماعات القبلية.

وقـد يكـون الاحـتراب الثقافي والسـياسي بـين لهجة الجماعـة الحاكمـة، ولهجات الجماعات المحكومة، في المجتمع اللغوي الواحد، ففي العراق مثلاً ثمة استعلاء لهجي، يتبادله العراقيون على مستويات شتى، منه ما كان بين المدن والأقاليم والعاصمة، ومنه مـا كان بـين مراكز المدن وضواحيهـا، ومنه ما كان بين المدن والقـرى والأرياف، لكن أكثرهـا مرارة، وتمزيقاً لفرضية وحدة المجتمع العراقي، وصول ممارسـات الاسـتعلاء اللهجي –في زمن الحكم البعثي القومي الاشتراكي في تسعينيات القرن العشرين– إلى تنزيه لهجة السلطة الحاكمة، المتحدَّث بها في أقاليم صلاح الدين، والأنبار، والموصل[2]، عن اسـتعمالها في صياغة الطُّرَف المضحكة، وقصائد الشـعر الغنائي، والفنون التمثيلية التلفزيونيـة، والمسرحيـة، فقد جرى العمل الـدؤوب لجعلها لهجةً خاصةً، مسـتعلية، محفوفة بهالات القداسة، والتبجيل، والاحترام، بحكم اختصاصها بالعائلة (الرئاسية) الحاكمـة، والبيئـةِ الثقافية المتحدرة منها، وأبنائها من القادة السياسـيين، والعسـكريين الذيـن احتكـروا حكم العـراق بالغلبـة العصبوية العشـائرية المغلّفة بالعقيـدة القومية العربية، واليسار البعثي المزيّف. ولكي تزداد تلك اللهجة قوة وقداسة في نفوس أجيال من العراقيين، جرى ترسـيمها –بشـكل غير معلن– لهجةً خاصة بحوارات المسـاجد،

que ce charabia) مـا ترجمتـه: ما هذا الخليط العـربي؟ أي توقف عن هذا الحديث المشـوش المتنافر. ينظر: حرب اللغات والسياسة اللغوية (كالفي) 66، وأوردنا الجملة من المصدر، بأصلها الفرنسي لفائدة العارفين باللغة الفرنسية.

(1) نستعمل مصطلح (طبيعي) بوصفه مقابلًا مضادًّا لمصطلح (ثقافي)، فالأول يمثل النزوع الغرائزي لدى الكائن الحي، والثاني يمثل مرحلة الكائن المدجن بالمُثُل.

(2) أقاليم عراقية تشكل الجزء الشمالي الغربي من العراق، وهي مناطق سكنى المكون السُّني في العراق.

والمناقب البدوية، والدواوين العشائرية.

أما لهجات الفئات المحكومة في العراق فكانت تربط -في حقبة تسعينيات القرن العشرين، على شاشة التلفاز العراقي-ربطاً مدروساً، وذكياً بـ(بنات الريف)، وهنَّ المطربات الغجريات الراقصات، ذوات السمعة السيئة، بحسب معايير الثقافة العراقية، وبالأعمال التمثيلية المسرحية التهريجية الهابطة، القائمة على تقديم صنف من الأبطال المسرحيين المعتوهين، الذين يظهرون بملابس رثة، وممزقة، وعيوب نطقية كثيرة. وما زالت بعضُ القنوات الفضائية العراقية، حتى يومنا هذا، تقدم أعمالاً فنية تمثيلية عن قرى جنوبية ريفية افتراضية بالطريقة نفسها، ومن النادر أن تجد بطلاً في عمل فني ريفي، أو في عمل درامي عن ضواحي العاصمة العراقية، وهو يظهر بملابس نظيفة، ويحسن الكلام، ويخلو من خلل نطقي على مستوى الفونيمات، أو التنغيم، أو النبر.

وتقتضي دواعي المنهج العلمي إلى الاعتراف بأن هذا النوع من الاستعلاء البشري كان ومازال شائعاً شيوعاً بشريًّا عامًّا، وغير مرتبط ارتباطاً حصريًّا بصراعات الحاكم والمحكوم، و ((يمكن أن نتصور أن الناس كانوا دائماً في مواجهة الاختلاف اللغوي ميّالين إلى السخرية من عادات الآخرين، وإلى اعتبار أنْ لغتَهم هم هي الأجمل، وهي الأنجعُ، وهي الأدقّ، أي إنهم كانوا دائماً ميالين إلى تحويل اختلاف الآخر إلى نقصان فيه)) (كالفي، 2008م، 101)، ما يعني أن المسألة تتعلق بمركبات النقص في الطبيعة البشرية، التي تحاول الشعور بقوة الحضور في العالم، بوسمها الآخرين بميسم الضعف، والانحطاط، والتردي.

وإذا بدت الممارسة اللغوية الاستعلائية العالمية مرتبطة ارتباطا قويًّا بشعوب البحر الأبيض المتوسط، كالعرب، والإغريق، واليهود، وسواهم من الشعوب المحركة لتاريخ العالم، فإننا لا نعدم أن نجد بلداً يقع في النواحي القصيّة من هذا الكوكب، مشتملاً على جماعة لغوية رئيسة، تمارس جماعاتُها الثانويةُ فيما بينها فخراً لغويًّا متعالياً

جـدًّا، وبالطريقـة نفسـها المألوفـة لدى الشـعوب المتوسـطية، ففـي بلد يدعـى (غينيا الجديـدة)[1] في الزمـن الراهـن، مـن التاريـخ البشري، ثمة قـرى تتحـدث بلهجة من لهجـات لغةٍ غير ذائعة، تُدعى (البوانج)، و ((تعتقـد أن لهجتها أفضل لهجات البوانج عـلى الاطـلاق)) (د. هدسـون، 1990م، 329)، فتلـك القـرى الغينيـة البعيدة تمارس نشـاطاً ثقافيًّـا تصنيفيًّا تمييزيًّا ضمـن بيئتها (البوانجية) الكـبرى، بطريقة لا تختلف عما يجـري في الحواضن الحضارية المتوسـطية، ما يعني أن الافتخار اللغـوي واللهجي بنيَةٌ راسخة في الثقافات البشرية كافة، حتى المنزوية منها عن أنظار العالم، وليس مخصوصاً بالثقافات البارزة في التاريخ، ما يشـير إلى وحدة الطبيعة البشرية، في كثير من نشـاطها اللساني الأنثروبولوجي.

وإذا كان نشـاط كهـذا يوفـر للبـشر (المتكلمـين) فرصـة ثقافيـة كبـيرة للشـعور بالاختـلاف، وتأكيـد الهويـة الطرفيـة، فإنه يوفـر -من وجـه آخر -للباحث اللسـاني الأنثروبولوجي معطيات ذات عمق معرفي (إبستيمولوجي) للتحليل الثقافي؛ ما يجعل الـكلام، أي (الوجـه الأدائـي من اللغـة) مفتاحاً للدخـول إلى خفايـا الطبيعة البشرية (هدسون، 1990م، ينظر: 334)[2].

ولا تنفـك هـذه الظاهرة عن الخضوع شـبه الحتمي للحراك البـشري[3]، في حقوله الاقتصادية، والثقافية، فليسـت اللغة بمنجناة عن إكراهات السـياق الأنثروبولوجي، التـي تُفَتّـت وحدتَهـا الدلالية، بـل حتى بنياتِهـا التركيبيـة، وتُحيلها -بما يشـبه الحتمية الفيزيائية- إلى حزمة من مسـتويات الأداء، بل حزمة من اللهجات المتباينة، والمتناحرة أحيانـاً؛ يقـول د. إبراهيـم أنيـس: ((الظـروف الاجتماعيـة في البيئة الواحـدة قد تولد

(1) غينيا الجديدة: جزيرة كبيرة تقع في جنوب غرب المحيط الهادي، شمال أستراليا.

(2) ويقول د. هدسـن أيضاً: ((يستخدم الناس... كلام الآخرين مصدراً للمعلومات غير اللغوية عنهم))، والمعنى: الحصول على معلومات شخصية ذات بعد فردي، أو ثقافي بنيوي.

(3) نقول: (شبه حتمي) بحكم استعمالنا (البنيوية التكوينية) منهجاً في التحليل اللساني الأنثروبولوجي.

أنواعاً من اللهجات الخاصة، كتلك التي نراها بين أصحاب حرفة من الحرف، أو بين اللصوص وطريدي القانون، أو بين طائفة من الناس قد انعزلت عن المجتمع لسبب ديني، أو سياسي)) (أنيس، 2003م، 18)، ويتساوق مع هذا (التطييف) الذي ختم به د. إبراهيم أنيس نصَّه تمييزٌ ثقافيٌّ صارم، بمصاديق لسانية، وسيميائية، ما يعني أننا بوصفنا بشراً متكلمين ((قد نستخدم الصرف والتراكيب والمفردات حتى نحدد مكانتنا الراهنة في المجتمع)) (د. هدسون، 1990م، 83)، ويؤكد هذا الطرح المعرفي أن التنوع الكلامي– خلافاً لفرديناند دي سوسير – غير منوط حصراً بخياراتنا الفردية، بل هو أيضاً ((نتيجة لمظاهر الاختلاف الاجتماعي، بمعنى أن اللغة تتنوع طبقاً للهويات الاجتماعية للأشخاص أثناء تفاعلهم)) (فيركلِف، 2016م، 39)[1]، فلم تكن اللغة يوماً، ولن تكون أبداً بمعزل مختبري، أو في حالة من (الحَجْر اللساني)، لكي تتخلص من أثر المحيط البشري في تشكيل مساراتها؛ يقول بيير بورديو: ((إن من يهمل مسألة استعمالات اللغة، وبالتالي مشكلة الشروط الاجتماعية لاستخدام الكلمات، لابد وأن يظل طرحُه لمسألة الكلمات ونفوذها طرحاً ساذجاً)) (بورديو، 2007م، 57). ولعل دي سوسير لم يغفل هذا المنحى المعرفي إغفالا مطلقاً، بدليل اجتراحه مبدأ (مستوى الأداء)[2]، الذي يُعد دليلًا على وجود بعض الحتميات (المهنية)، و (الاجتماعية)، غير الفردية، المتحكمة في الكلام، لكن مأزقه المعرفي كَمَنَ في اشتراعه الفهم المحايِث للدلالة[3]، وليس هذا الخيار السوسيري بالأمر اليسير العابر، الذي

(1) واللغة –هنا–تعني مستويات الأداء.

(2) مستوى الأداء، أو وحدة الأداء: هو نوع النشاط اللساني الذي يجري فيه استعمال اللغة، كالنشاط الفني، أو الحرفي، أو الأدبي، أو العلمي، وهلم جرّا. ينظر: المعجم الوظيفي لمقاييس الأدوات النحوية والصرفية (عبد القادر عبد الجليل) 112.

(3) المحايثة: ((مصطلح يدل على الاهتمام بالشيء (من حيث) هو ذاته وفي ذاته، فالنظرة المحايثة هي النظرة التي تفسر الأشياء في ذاتها ومن حيث هي موضوعات تحكمها قوانين تنبع من داخلها وليس من خارجها)) تعريف بالمصطلحات الأساسية، ضمن كتاب (عصر البنيوية) 391.

يسهل قبوله في حال التعامل مع النتاج البشري اللساني المؤسس لكثير من الأصول المعرفية (الإبستيمولوجية)، فالموروث اللساني الأنثروبولوجي في تاريخ جميع الثقافات البشرية يؤكد تأكيداً قاطعاً أن ثمة نصوصاً لسانية أنتجت تغيرات ثقافية، وسياسية، عميقة في مسيرة أفرادٍ، وقبائل، وشعوب، وأمم بأكملها، من ذلك مثلاً نصوص الكتب المقدسة، وخطابات الأنبياء، والمصلحين، والفلاسفة، وقصائد الشعراء المبرّزين.-

ثالثاً: اللغة والحياة الإنسانية

تتبدى اللغة إلى العالم بوصفها ((الحقيقة الاجتماعية بأوفى المعاني)) (فندريس، 1950م، 10) (بافو و سرفاتي، 2012م، ينظر:114)، ولا يمكن للإنسانية -بغض النظر عن الكم العددي- الاستمرار على قيد التجمع، والتحضر، والعيش المشترك، وممارسة أفعالها الحياتية من دون اللغة، بسبب طبيعة كونها مثوى الشفرات الثقافية، وبها تصاغ النصوص اللسانية، بأنواعها الدينية، والتاريخية، والنفسية، والاجتماعية، والتجارية، والقانونية، والدستورية، والفيزيائية، والكيميائية، والرياضية، والفلسفية، والطبية، وبها تحلل النصوص السيميائية كافة، ومن بدائه الدرس اللساني أن البحث عن (شيء ما) في النصوص المتباينة، بوسائل التحليل المتاحة ما هو إلا بحث عن (المعنى) في نصوص لغوية.

ويتبادل البشر التأثير -بحسب رأي هابرماس- في حدود عمليتين متميزتين هما: الفعل الذرائعي، والفعل الاتصالي (بوتومور، 1998م، ينظر:130)، ويتحصل لهم ذلك بوساطة أنماط التراكيب النحوية المتعددة، كالجمل، والنصوص اللسانية، والسيميائية، ولكن التفاعل البشري لا يقف عند هذا المستويات التركيبية من الكلام، فثمة آثار ثقافية راسخة، لم تتكرس في حياة الناس بنص لساني طويل، أو قصير، أو بجملة واحدة، متشكلة من مسند ومسند إليه، بل بما هو أصغر من ذلك بكثير، أي بالوحدات الصوتية الصغرى في الكلام، كـ(الفونيم)، و (المقطع القصير)، وهما

وحدتـان صغريـان تتمظهـران بمصاديـق كثيرة جـدًّا، وقـد تكونـان ذواتي بعد ثقافي أنثروبولوجـي كبير، يسـهم إسـهاماً حاسـماً في تصنيف حشـود هائلة مـن البشر، على أسـس قبلية، ومناطقية، وثقافية من عيـار ثقيل، وهو تصنيفٌ قد يدفع الناس إلى بلوغ مستويات قصوى في مديات الصراع على احتكار الوجود بأبعاده؛ الطبيعية، والثقافية، والوجودية (الأنطولوجية)(1).

رابعاً: الفونيم

الفونيـم ((أصغـر وحدة صوتية تُحدث تمييزاً في المعنـى، أو هو بعبارة أخرى أصغر ذرة في الـكلام)) (جاكوبسـن و وموريـس، 2008م والكلام للمترجـم ص12) (بافو و سرفـاتي، 2012م، ينظـر: 209) (هارتمـان و وسـتروك، 2012م، ينظـر: 372)، وبهذا الوصف يمكن عدّه (اللبنة الأساسـية) لإنتاج الكلام، وهو أحد منتجات اللسـانيات الصوتية الغربية الحديثة، ويرتبط تاريخ دراسـته بمدرسة براغ الوظيفية، التي تأسست في العام 1926، وكان لتلك المدرسـة فضل تأسـيس (نظرية الفونيـم)؛ التي ميَّزت بين الفونيـم بوصفه واقعة فيزيائية موضوعية، والفونيم بوصفه عنصراً من عناصر النسـق الوظيفـي (بافـو و سرفـاتي، 2012م، ينظر: 195)، فـكَـون الفونيم (مـادة لغوية)، أي واقعـة فيزيائيـة بحتة، يصنِّفُهُ وحـدةً صوتيةً معزولة عن غيرها، فـلا يُنظر إلى وظيفتها اللغويـة، ولا إلى أثرها في المعنى، ويكون موضع دراسـته: (علـم الأصوات اللغوية)؛ أي (علـم الفوناتيـك)، وهو العلم الـذي يدرس الأصوات البشريـة اللغوية المجردة، غير المركبة في الكلام، فهذه الدراسـة عالمية عامة، لأنها تدرس الأصوات اللغوية التي تتكـون منها اللغات البشريـة كافة، ولا يمكنه - والحال كذلـك - الدخول في ميادين التمايزات الثقافية اللسانية الأنثروبولوجية، للوحدات الصوتية الصغرى.

(1) وليـس من العبث الثقافي واللسـاني إطلاق مصطلح (لغة الضاد) على العربيـة، ليكون فونيمٌ واحد دالةً رمزية على لغة كبرى كالعربية.

أما كون الفونيم (مادة كلامية)، أي واقعة وظيفية، فيعني انضمامه إلى غيره من الوحدات الصوتية الأخرى؛ (الفونيمات)، من أجل بناء مفردة معينة، يكون لها دلالة خاصة بها، وهو -في هذه الحال- يؤدي وظيفة بنائية، ودلالية معاً، فإذا استبدلنا به فونيماً آخر تغيرَ معنى الكلمة، لأنها تحولت إلى كلمة أخرى، فالنون (ن) مثلاً في اللغة العربية، يكون عنصراً من عناصر الحدث الكلامي إذا ما انضمَّ إلى غيره، من أجل تأليف كلمة، مثل: (نام)، وإذا استبدلنا به فونيم القاف (ق)، أصبحت الكلمة: (قام)، أي تغيرت بنيتها، وصار لها معنى آخر (عمر، 1997م، ينظر:68)، ويُدرس (الفونيم) - في حاله هذا- ضمن (علم الأصوات الوظيفي)، أي (علم الفونولوجي)، وهو العلم المعنيّ بتنظيم الأصوات في اللغات البشرية، ويركز هذا العلم تقليديًّا على دراسة أنظمة الفونيم في لغة محددة، وفي حقل دراسي واحد، والفونيم في حالته الثانية يدخل في صميم قضية الأثر الثقافي اللساني الأنثروبولوجي للوحدات الصوتية الصغرى.

خامساً: الفونيم والألوفون:

يضطلع الفونيم بمهمة تأسيسية في إنتاج الكلام بالمعنى البنائي المحض[1]، بيد أن أنواعاً منه تمتلك -بالإضافة إلى ذلك- قدرةً بالغةَ التأثير في التصنيف الثقافي للبشر، فقد تتشابه، بل تتطابق بعض التراكيب النحوية في لهجاتِ لغةٍ ما، لكن فونيماً واحداً في التركيب النحوي الواحد المشترك بين اللهجات، قد يكون الفيصل المفضي لإحداث التمايز الثقافي القيمي بين جماعات المتكلمين الفرعية، المندرجة في الجماعة اللغوية الكبيرة؛ يحدث أمر كهذا في حال أخذت بعض فونيمات اللغة الواحدة صوراً أخرى غير صورتها الرئيسة، أو غير صورتها المعيارية في إنتاج الكلام، وهو ما اصطلح عليه في الدرس الصوتي الحديث بـ (الألوفون).

(1) وهو الأمر المتعلق بحروف المباني في الدرس اللغوي العربي.

الألوفون هو كل مظهر مادي مختلف للفونيم (عمر، 1997م، ينظر: 184)[1]، ومعنى هذا أن تغيير الصوت في الكلمة نفسها، وفي الموضع الصوتي نفسه، مع عدم حصول تغيير المعنى يستلزم ألّا يكون الصوت الجديد فونيماً مستقلاً، بل هو نوع آخر من أنواعه المادية، أو نسخة أخرى من الفونيم الأصلي؛ يمكنها الوفاء بأداء الغرض الوظيفي المحض، لكنها ليست نسخة مطابقة من الناحية الصوتية الفيزيائية، من ذلك مثلا قول العرب: (عنبر)، و (عمبر) والمعنى واحد (ابن جني (ت392هـ) (د.ت)، ينظر: 1/ 256)، و (طوبى)، و (طيبى) والمعنى واحد (ابن جني (د.ت) ينظر: 1/ 384)، ومن ذلك أيضا قول فريق من العرب: (النات) بدلاً من (الناس)، بقلب السين في أواخر الكلمات تاءً، والمعنى واحد؛ قال الشاعر:

يا قبَّح اللهُ بني السِّعْلاةِ.. عَمرو بن يربوعٍ شرار الناتِ

يريد بـ (شرار النات): (شرار الناس) (ابن منظور (د.ت)، 13/ 229، 15/ 445)[2]، ومن ذلك أيضا أنَّ مِن العرب مَنْ يجعل التاء كافاً؛ قال رجل من حِمْيَر: يا بن الزُّبَيْرِ طالما عَصَيْكا.. يريد (عَصَيْتا) (ابن منظور، ينظر: 15/ 193)، وتسمى هذه الظاهرة اللغوية بـ (الوتم) (السيوطي (ت911هـ)، (د.ت) ينظر: 1/ 222)، ومن العرب من يقول: (شِيَرَةٌ)، بدلاً من (شَجَرَة) (ابن منظور، ينظر: 4/ 494)، ومنهم من يقلب (الياء)، (جيماً) فيقول: (أَنا تَمِيمِجٌّ)، أَي (تميميّ)، وما حكاه سيبويه في هذا الشأن أَن ناساً من بني سعد يبدلون الجيم مكان الياء في الوقف خاصة، وذلك قولهم: تَمِيمِجْ، في تَمِيميْ، فإِذا وصلوا لم يبدلوا (ابن منظور (د.ت)، ينظر: 4/ 394)[3].

---

(1) ويقول د. سمير شريف ستيتيه ((إذا لم يؤدِّ تغيير الصوت في الكلمة إلى تغيير المعنى، فإن الصوت الجديد ألوفون من ضمن التنوعات الألوفونية للفونيم)) اللسانيات، المجال والوظيفة والمنهج 71.

(2) وجاءت السعلاة بالتاء المفتوحة في هذا الموضع. والشاعر هو عِلْباء بن أرقم.

(3) العربوروي عن ابن مسعود أنَّه قال: (على كل غَنِجٍّ)، يريد (غَنِيٍّ)، ينظر: المصدر والصفحة أنفسهما، وتسمى هذه الظاهرة بـ (العجعجة)، وتنسب إلى قضاعة، ينظر: المزهر (السيوطي) 1/ 222.

هذه عينات من التنوع الألوفوني العربي، ولا يعدم من يروم بسط البحث في شأن كهذا أن يجد الكثير منها، وقد وجد بعضٌ من هذه العينات موضعاً له في مرويات النشاط اللساني العربي، في عصر صدر الإسلام، من ذلك مثلاً الأثر المروي في عدد من متون فقه اللغة العربية، بشأن الحوار الذي دار بين الرسول الكريم محمد (ص)، ووفد من قبيلة حمير، كان قَصَدَ مكة قبل الهجرة النبوية؛ فقد سأل أحد الحميريين رسول الله (ص) قائلاً: أمن امْبر امصيام في امسفر؟ فأجابه الرسول الكريم بلهجته، فقال: ليس من امبر امصيام في امسفر (ابن جني، 1993م، 1/ 359)، فقبيلة حمير تستعمل صيغة (امْ) لتكون دالة التعريف بدلاً من صيغة (الْ) المتداولة في سائر اللهجات العربية، ما يعني أنها تستبدل ميماً ساكنة بلام التعريف الساكنة (السيوطي (د.ت)، ينظر: 1/ 223)[1]، وفي هذا النص المشهور تأكيد لوجود دالة لهجية مائزة، على أساس فونيمي ألوفوني بحت، لواحدة من القبائل العربية المعروفة، متشكِّل من ميم ساكنة ليس إلا، بيد أنَّ ما يحصل هنا ليس تعبير الفونيم عن دلالة معجمية مفارقة، بدليل حصول التفاهم بين السائل والمسؤول، بل تعبيره عن هوية ثقافية قبلية، أو جماعة لغوية فرعية، وهذا نشاط ثقافي فذّ، يجعل من الفونيم ((أحد العناصر اللغوية القابلة للتغير والتأثر بالأنماط الاجتماعية)) (استيتية، 2008م، 74)، وهو ما تبدى في استعمال الرسول الكريم (ص) للألوفون الحميري، هذا من جهة، كما أنه هو نفسه سيكون بالنتيجة عنصراً قادراً على تحديد هوية جماعة لغوية ما، أمام جماعة لغوية أخرى.

سادساً: الوحدات الصوتية الصغرى ومستقبح اللهجات العربية

أنتج الفرز السكاني العربي في العصر الجاهلي، على أسس قبلية، لهجات عربية متعددة، بِسِمات محلية متمايزة، وهذا أمر بدهي بمنظور لساني أنثروبولوجي، فكلما ضعف اندماج السكان كثرت لهجاتهم الفرعية في البيئة اللغوية الواحدة الكبيرة، لكن

(1) وتسمى هذه اللغة بـ (الطُّمْطَمانِيَّة)، ويلاحظ أن الهمزة هنا صوت حيادي.

اللافت للنظر المعرفي (الإبستيمولوجي) تسويغ الخلاف الفونيمي العربي الجاهلي، وغياب انخراطه في الصراعات الدموية، والثقافية في الحياة اليومية للقبائل العربية، التي كانت تتعاطى التفاخر القبلي، بنشاط أنثروبولوجي كبير، ولكن على أسس غير لهجية.

كان للتصنيف الثقافي المستند إلى اللهجات القبلية ميدان آخر هو حقول الدراسات العلمية اللغوية، التي جاءت بعد تأسيس الدولة العربية الإسلامية، فقد مارس فيها شطر من علماء العربية درجات قصوى من التقييم اللساني الأنثروبولوجي، وبالغ في اتخاذ مواقف تمييزية بحق عدد كبير من لهجات القبائل العربية، ولو اقتصر الأمر على توثيق الفوارق اللهجية فليس ثمة ضير في ذلك، لأنه جزء من وظيفة الدارس اللغوي، لكن المشكلة كمنت في بثّ ثقافة تمييز لهجي راسخة، مشيدة على اختلافات صوتية (فونيمية)، وهو عمل دراسي مشوب بكثير من التسقيط اللهجي، المستند إلى منهج انطباعي، مرتهن بنزعات ذاتية؛ ذوقية استعلائية، قد تكون في معظمها نزعات خاصة بفريق من علماء العربية؛ الفريق الذي استعمل في تثبيت رؤاه العلمية مصطلح (مستقبح اللهجات)، و (مستبشع اللهجات)، معززاً توجهه الدراسي النقدي باستعمال أوصاف مشفرة بمضامين قمعية، من ذلك مثلاً: (لُغَيَّةٌ مَرْذُولَةٌ) (الفيروزآبادي (817هـ)، 1998م، 604)[1]، و (غير مستحسنة، ولغة ضعيفة مرذولة، غير متقبلة) (ابن جني، 1993م، 1/ 46)، و (اللغات المذمومة) (ابن فارس 1997م، 29)، و (الضعيف، والمنكر، والمتروك من اللغات) (السيوطي (د. ت)، 1/ 214)، و (أقبح اللغات، وأنزلها درجة) (السيوطي (د. ت)، 1/ 221).

وليس خافياً أن استقباح لهجة قوم هو بالضرورة قدح في القوم أنفسهم، أو في ذائقتهم اللسانية في أقل تقدير، وإن كان بدون قصد ظاهر، وكانت لهجة قبيلة قريش

(1) ومما يجدر ذكره أن القمع العلمي قد يكون ضد الكلمة الواحدة، بغض النظر عن ذكر القبيلة، وهو في كل حال قمع لمن يتلفظ بها.

هي اللهجة العربية المعيارية التي على وفقها صنِّفَت لهجات القبائل العربية، وقد حسم علماء اللغة المعنيون بالتسقيط اللهجي هذا الأمر في بدايات بحوثهم، بأحكام قطعية، غير قابلة للنقاش، منحازة للهجة قريش بألفاظ تقريرية، كما فعل ذلك ابن جني[1] مثلًا باستعماله عبارة: (ارتفعت قريش...)، ليتقرر لدى المتلقي قيام الدرس اللغوي على نزعة استباقية إيديولوجية ثابتة؛ يقول ابن جني: ((...حدثنا أبو بكر محمد بن الحسن عن أبي العباس أحمد بن يحيى ثعلب، قال: ارتفعت قريش في الفصاحة عن عنعنة تميم، وكشكشة ربيعة، وكسكسة هوازن، وتضجّع قيس، وعجرفية ضبّة، وتَلْتَلة بَهْراء)) (ابن جني) (د.ت)، 2/ 11)، فأمّا عنعنة تميم التي ارتفعت عنها لهجة قريش، فهي وضعها (عن)، في موضع (أن)، وأما كشكشة ربيعة فالمراد بها نطقها الشين مع كاف ضمير المؤنث، على النحو الآتي: إنَّكِش، ورأيتُكِش، وأعطيتُكِش، وتفعل ربيعة هذا في الوقف، فإذا وصلت أسقطت الشين، وأما كسكسة هوازن فهي قولها: أعطيتكِسْ، ومِنكِسْ، وعنكِس، ويحدث منها هذا في الوقف دون الوصل، وأما تلتلة بهراء فهي قولها: تِعلمون، وتِفعلون، تِصنعون، بكسر أوائل الحروف (ابن جني (د.ت)، 2/ 11-12)[2].

وكيفما كان نوع الشحنة الدلالية لكلمة (ارتفعت)، فإنها لا تنفك دالة على استعلاء من نوع ما، فلفظة (أن) القرشية تمثل المستوى اللغوي (المرتفع)، ونظيرتها (عَن) التميمية تمثل المستوى اللغوي (المنخفض)، ويطرد الأمر مع سائر المصاديق الأخرى[3]، ولا يخفى أن ابن جني ليس عربيًّا، وأن السياق الذي جرى فيه الدراسة هو (حضارة

(1) لا يقلل هذا الكلام من قيمة ابن جني؛ العالم اللغوي الكبير.

(2) ولم يشرح ابن جني تضجّع قيس، ولا عجرفية ضبة. فالتَّضَجُّع هو التراخي الصوتي، وينسب لقبيلة قيس، ينظر: المعجم المفصل في علوم البلاغة (إنعام فوّال عكاوي) 374. والعَجْرَفِيَّة هي خاصة لهجية تتميز بالجفاء والتقعُّر في الكلام أي التكلم بقعر الفم، وينسب لقبيلة ضبَّة. ينظر: المصدر نفسه 601.

(3) ويقول د. رشيد العبيدي: ((العنعنة من العيوب اللهجية في لغة تميم، أو قضاعة)) معجم الصوتيات 126.

إسـلامية)، تتبنى مبدأ (الناس سواسية) على وفق الوصايا النبوية الشريفة، لكنه –على الرغـم مـن ذلك– مـارس قمعاً علميًّـا لغويًّا مبالغـاً فيه على مسـتوى التنظير، أما على مستوى الاستعمال فسلك –أحياناً– سبيلاً توفيقيّةً بين الرفض والقبول، فألزم المتكلم بقدر من الوجوب بترك هذه اللغات، وضرورة التقليل من اسـتعمالها، ولم يكن جازماً قاطعـاً بوجـوب ترك اللغات الضعيفة على أي حال؛ يقـول ابن جني: ((... وعلى هذا فيجب أن يقلَّ استعمالها، وأن يتخير ما هو أقوى وأشيع منها؛ إلا أن إنساناً لو استعملها لم يكـن مخطئـاً لكلام العرب، لكنه كان يكون مخطئاً لأجـود اللغتين، فأمَا إن احتاج إلى ذلك في شـعر أو سـجع فإنه مقبول منه، غير مَنعِيّ عليه)) (ابن جني (د.ت)، 2/ 12)، وهنـا يتدخـل المنهج الانطباعي، المبني على أسـاس الشـعور الذاتي بجـودة لغة ما، كما أن الذرائعيـة (البرغماتيـة) التي تحكمها حاجة القافية في الشـعر، والنثر تبيح (المحظور الفونيمي)، وبذلك يترنح رأي ابن جني بين المعيارية الإيديولوجية، والوصفية الآنية، والذرائعية الفنية.

ولم يكـن ابـن فـارس؛ العالم المعـاصر لابن جني بأقل منـه اندفاعاً في مسـألة تقرير (المذموم من اللغات)، فهو لم يكلف نفسه مشقة البحث في حقيقة المذموم والمستحسن، بل وضع عنواناً لمبحثه هو: (باب اللغات المذمومة)، وشرع، بدون أدنى تسويغ معرفي، ببث (المصاديق) المعروفة للذم، أو القبح في اللسان العربي، كعنعنة تميم، وكشكشة بني أسـد، وهلم جرّا؛ قال ابن فارس: ((باب اللغات المذمومة: أما العنعنة التي تُذكر عن تميم فقلبهم الهمزة في بعض كلامهم عيناً، يقولون: (سمعتُ عَنَّ فلاناً قال كذا) يريدون (أنَّ)... وأما الكشكشـة التي في أسـد فقال قـوم: إنهم يبدلون الكاف شـيناً فيقولون: (عَلَيْـشَ) بمعنـى (عليـك)... وكّذلـك الكسكَسـة التي في ربيعـة إنما هـي أن يَصِلوا بالكاف سيناً، فيقولون: (علَيْكِسْ))) (ابن فارس 1997م، 29)[1]، فهذه مصادرة –من

(1) ويلاحظ اختلاف نسـبة (المرذول من اللغات) إلى القبائـل. ويلاحظ اضطراب المصطلح في النصوص، ففي نص سابق نسبت الكشكشة إلى ربيعة، والكسكسة إلى هوازن، أما في هذا النص فالكشكشة منسوبة إلى

حيث المبدأ- لشرعية هذه اللهجات في الوجود. ولم يكن العالم الموسوعي جلال الدين السيوطي ببعيد عن هذا المنهج، فقد استعمل مصطلح (الرديء المذموم من اللغات)، ونعته بكونه أقبح اللغات، وأنزلها درجة (السيوطي (د.ت)، 1/ 221)[1].

ومن علماء العربية في الأزمنة الحديثة الدكتور صبحي الصالح، الذي دفع ببيان قضية القمع الثقافي على أساس صوتي (فونيمي) إلى مديات قصوى غير معهودة؛ يقول الدكتور الصالح: ((لو أن شاعراً ضمّن شعره شيئاً من كشكشة ربيعة، أو طُمْطُمانية حمير، أو عجعجة قضاعة، وغدا ينشده في بعض أسواق العرب، لغلبوه على أمره بالمكاء والتصدية، ولصيَّروه أضحوكة من التهكم به والتندر عليه)) (الصالح، 2004م، 69)، وسواء حدث افتراض الدكتور الصالح -وهو يبقى افتراضاً محضاً- بمحضر العرب في العصر الجاهلي، أم بمحضر العرب، وعلماء العربية في العصر الإسلامي، فإنه يؤكد أثر الوحدات الصوتية الصغرى، الكبير في ممارسة القمع الثقافي، وتبادل التأثير بين الناس، ولعل أبرز ما تقدمه لنا مقولة الدكتور صبحي الصالح رسوخ موضوعة القمع اللغوي ذات المنحى المعرفي (الإبستيمولوجي)، في الذاكرة الجماعية لعلماء العربية.

يتبدى لنا أن البحث اللغوي العربي كان مشحوناً بمستوى عالٍ من القمع، أو التمييز الثقافي في دراسته اللهجات القبلية العربية، غير المتوافقة مع اللهجة القرشية، لكن الإنصاف العلمي يحتم القول إن مصطلحات التسقيط اللغوي، لم تكن لتشمل اللهجات العربية المرفوضة كلّها، بل كانت لعدد محدد من كلماتها، أو لبعض من مزاياها اللغوية الصوتية، أو الصرفية، بسبب الضغط الثقافي للإسلام، الذي أسهم بقدر، أو بآخر في الحد من ممارسة النزعة الاستعلائية القبلية العربية.

بني أسد، والكسكسة إلى ربيعة.

(1) وينقل السيوطي عن بعض العلماء السابقين أن بغداد يقال لها: بَغدان، ومغدان، وبَغداذ، وينقل أن هذه التسمية الأخيرة هي (أقلها وأردؤها) المزهر 1/ 224.

إن أحـكام علماء العربية عـلى المزايا اللهجية القبلية لم تكن لتسـير على منهج واحد متماسـك في مطلقها، بسـبب اصطدامهـا بالاختيار القـرآني من جهـة، وبموقف رواة القـراءات القرآنية من جهة أخرى، فثمة عدد مـن القبائل العربية المهمة، التي احتوت لهجاتها على تراكيب، وفونيمات مسـتقبَحة، لدى علـماء العربية، حظي بعض تراكيبها، وكلماتهـا، وفونيماتها الخاصـة، بأفضلية معيارية، تفوقت بها على مـا يناظرها في اللهجة القرشية، ومن العينات الدالة على ذلك مثلا لفظة (صعَّر)، التي جاء بها القرآن الكريم عـلى لهجـة تميم؛ قال تعالى: ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ لقمان: ١٨، في حين أن اللفظة في لهجة أهل الحجاز هي (تصاعر) (المطلبـي، 1978م، ينظـر: 57)، وبذلك يكون القرآن الكريم هو الذي حسـم أفضلية استعمال هذه اللفظة.

وتتعزز هذه الفكرة بمعرفتنا موقف عدد مهم من مثقفي الحضارة العربية الإسلامية، مـن الصحابة، والتابعين، وتابعيهـم، من القراءات القرآنية، التي حصل تسـاهل كبير منهم، في قبول أشـكالها المتكاثرة، القائمة على تنوعات صوتية قبلية، غير قرشية، وهم -وإن ضعّفـوا بعضاً منها- استحسـنوا كثيراً منها، من بـاب آخر، وتعاهدوه بالرعاية والتدريس، مع أن القراءات تتسـبب-منذ عصور الإسـلام الأولى حتى يومنا هذا-في عرقلة تقديم نسخة قرآنية موحدة إلى العالم. ومن الأمثلة على ذلك أن بعض كبار قرّاء القـراءات القرآنية كان فضّلَ القـراءة بلهجة تميم في عدد من المواضع القرآنية، مرجحاً إياهـا على سـواها من لهجات العرب، بما فيها لهجة الحجاز، مـن ذلك مثلاً: قراءة عبد الله بن مسعود المفضِّلة للفظة (ثومها) التميمية، على لفظة (فومها) الحجازية، التي تمثل القراءة الشائعة في الكتاب الكريم؛ قال تعالى ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا﴾ البقرة: ٦١

ومـن ذلك أيضـاً تفضيل ابن مسـعود للفظـة (رُبيّـون) التميمية بضـم الراء، على (رِبيّون) بكسر الراء، مع أن هذه الأخيرة هي الشـائعة الاسـتعمال في الكتاب الكريم؛

قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا اسْتَكَانُواْ وَاللّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ آل عمران: ١٤٦

وسوى ذلك كثير، من قراءات ابن مسعود، وغيره من القرّاء المشهورين؛ كعاصم بن أبي النجود، وأبي عمر بن العلاء، والكسائي، وحمزة الزيات (المطلبي، 1978م، ينظر: 59–67).

ومالت قبيلة تميم إلى تحقيق الهمز، في الكلمات التي على وزن (فعْل)، فقالت مثلا (المطلبي، 1978م، ينظر: 82–83): (رَأْس، وفَأْس)، في (راس، وفاس)، و (ذِئْب، وبِئْر)، في (ذيب، وبير)، و (شُؤْم، ولُؤْم)، في (شوم، ولوم)، ومما جاء من ذلك –في القرآن الكريم– على لهجتها كلمة (ذئب)؛ قال تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾ يوسف: ١٣

وعلى الرغم من هذا الواقع الاستعمالي القرآني، غير القابل للنكران، في تفضيل مزية لهجية قبلية تميمية، على مزية لهجية قرشية، فإن مكانة الفونيم القرشي، ظلت معياراً للجودة اللهجية، ومنهجاً علميًّا مستداماً، عبر تاريخ الدراسات اللغوية العربية.

ولا تخلو فوضى المواقف العلمية في شأن اللهجات القبلية، من تأثير السلطة السياسية القرشية، التي أسهمت في ترسيخ مصطلح (مستقبح اللهجات)، وأمثاله، لسبب ذي طبيعة ثقافية تمييزية استعلائية واضحة، يتمحور مجهوده التنظيري حول ترسيخ موضوعة (الرقي الذاتي القرشي) في المخيال الجمعي للأمة الإسلامية، ليس لارتباط اللهجة القرشية – التي ليس ثمة شك في جودتها –بفصاحة الرسول الكريم (ص)، بل لسبب سياسي متعلق بتثبيت دعائم شرعية الاستحواذ على السلطة؛ قال الجاحظ: ((سأل معاوية يوماً: مَنْ أفصح الناس؟ فقال قائل: قوم ارتفعوا عن لخلخانية الفرات، وتيامنوا عن كشكشة تميم، وتياسروا عن كسكسة بكر، ليست لهم غمغمة قضاعة، ولا طمطمانية حمير، قال من هم ؟ قال: قريش)) (الجاحظ 1998م،

3/ 137)[1]، ففي هذا النص الجاحظي المؤسس، لم ترد فصاحة الرسول الكريم (ص)، بوصفها مصدر افتخار اللغة القرشية، بل لعلها غُيِّبَت تغييباً كاملاً متعمداً درءاً لحضور التميّز النبوي الفردي، الذي قد يضع كثيراً من القرشيين خارج دائرة الفخر اللغوي، لذا عُمّم الأمر حتى صار فخراً لهجيًّا شاملاً، ويظهر في هذا النص كذلك (التواطؤ العلمي) بين السائل والمسؤول، فلا يمكن تبرئة معاوية من الإيحاء برقي اللهجة القرشية، لأنها من عوامل تثبيت شرعية الاستحواذ على مقاليد السلطة السياسية في العالم الإسلامي، ولا يمكن تبرئة المتكلم من موضوعة تملق ولاة الأمور، بغية الحصول على الحظوة السياسية، والجوائز المالية، أو كليهما معاً، وهو ما كان شائعاً في تلك الأزمنة، بل مازال شائعاً حتى يومنا هذا، ومن العسير جدًّا معرفة معاني: (ارتفعوا)، و (تيامنوا)، و (تياسروا) معرفة علمية صحيحة، بحكم كون استعمالها منبثقاً عن نزعة انطباعية نفعية، ساعية لإرضاء السلطات الحاكمة.

سابعاً: الوحدات الصوتية الصغرى والدلالة العقائدية الإسلامية

للغة العربية أثر كبير في إدارة الصراع العقائدي المحتدم منذ أمد بعيد بين الطوائف الإسلامية المتعددة، فثمة صراع لغوي شديد موازٍ للصراع السياسي، يتمظهر إلى ساحة البحث، بتفسيرات دلالية لبنيات تركيبية متنوعة مختلف بشأنها، في عدد من الآيات القرآنية الكريمة، ولعل من بين أكثرها شهرة الخلاف في جدلية التنزيه والتشبيه، المبتني على فهم تركيب (يد الله)، في قوله تعالى: ((يد الله فوق أيديهم – الفتح 10))، وقد نشب الجدل العقائدي بشأن هذه المسألة على أساس معرفي (إبستيمولوجي) لساني، مضمونه الاختلاف على إشكالية وجود ثنائية الحقيقة والمجاز في اللغة، بيد أن ثمة صراعات عقائدية أخرى مهمة، متعلقة بمستويات دُنيا من النشاط اللساني العربي، مصاديقها الوحدات الصوتية الصغرى، المتمثلة بالمقطع الصوتي القصير، أي ما يطلق

(1) والكشكشة في هذا النص منسوبة إلى تميم.

عليه في الدرس اللغوي العربي بـ (الحرف المتحرك)، وهو ما يتبيّن من دراسة العينتين الآتيتين:

1 - مقطع الهمزة المتحركة:

اختلف المسلمون بشأن إشكالية الجبر والاختيار، ووصل الأمر إلى حدود التكفير العقائدي، وتمظهر التنازع في مواضع شتى، من بينها تفسيرات قائمة على طرائق فهم نصوص قرآنية كريمة، ولعل من أشهرها ما تعلق بفهم وظيفة (الهمزة المفتوحة) في الفعل (أغفل)، في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ الكهف 28.

تشكل الهمزة المفتوحة في الفعل (أغفل)، التي تساوي مقطعاً قصيراً موضعاً لخلافٍ صرفي وظيفي، ترتب عليه خلاف عقائدي كبير بين الفرق الإسلامية، فثمة فريق من الباحثين المسلمين يرى أن هذه الهمزة هي همزة التعدية، فيكون معنى الفعل (أغفل) هو: ((منع، وصدّ)) (ابن جني (د. ت)، 3/ 354)، ما يعني أن الله تعالى جعل قلوب فريق من الناس غافلة عن ذكره، وأفضى هذا التوجيه الصرفي الدلالي إلى القول بالجبر الإلهي، وثمة فريق آخر من الباحثين المسلمين – ومنهم عالم اللغة المعتزلي الشهير ابن جني– يرى أن الفعل (أغفل) ((من باب أفعلت الشيء، أي صادفته، ووافقته كذلك)) ((ابن جني (د.ت)3/ 253)، ما يعني أن الهمزة المفتوحة في (أغفل) دالة على وجود المفعول به على حال محدد، فهذا التوجيه الصرفي الدلالي يذهب بالهمزة المفتوحة بعيداً عن معنى التعدية، ليَدحضَ بهذا الفهم الوظيفي الصوتي قولَ القائلين بدلالة الآية على تأصيل عقيدة الجبر في المعتقد الإسلامي، ويدعم بالنتيجة عقيدة الاختيار، ويعزز ابن جني تحليله بشواهد عدة، منها قول الشاعر:

فأصممتُ عمراً وأعميته.. عن الجود والمجد يومَ الفخار

والمعنى: صادفته أصمَّ، وصادفته أعمى، يوم الفخار (ابن جني (د.ت)، ينظر:

3/ 254)، كما عـزز مقولته بتراكيب نحوية نثرية منقولة عـن عالم العربية المعروف؛ أبي حمزة الكسـائي؛ قال ابن جني: ((حكى الكسـائي: دخلْتُ بلدة فأعمرْتُها، أي وجدْتُها عامـرة، ودخلتُ بلدة فأخربتُها، أي وجدتُها خراباً)) ((ابن جني (د.ت)3/ 354)، ولم يكتف ابن جني بتثبيت رأيه بالشواهد من كلام العرب، بل لجأ إلى بحث لساني وظيفي دقيق، موضعه أداة عطف الفعل (اتبع) على الفعل (أغفل)، وهي الواو المفتوحة؛ التي تساوي مقطعاً قصيراً، ليرد قول القائلين بأن الهمزة للتعدية؛ يقول ابن جني: ((لو كان الأمر على ما ذهبوا إليه منه لوجب أن يكون العطف عليه بالفاء دون الواو، وأن يقال: ولا تطع من أغلفنا قلبه عن ذكرنا (فـ)ـاتبع هواه. وذلك أنه كان يكون على هذا الأوَّلُ عِلَّـة للثاني، والثاني مسـبَّباً عـن الأوَّل، ومطاوِعاً لـه؛ كقولك: أعطيته فأخذ، وسـألته فبذل، لمّا كان الأخذ مسـبّباً عن العطِيّة، والبذل مسـبّباً عن السـؤال، وهذا من مواضع الفـاء لا الـواو؛ ألا تـرى أنك إنـما تقول: جذبته فانجـذب، ولا تقـول: وانجذب، إذا جعلت الثاني مسبَّباً عن الأول، وتقول: كسرته فانكسر، واستخبرته فأخبر، كله بالفاء، فمجيء قوله تعالى (واتبع هواه) بالواو دليل على أنّ الثاني ليس مسـبّباً عن الأول؛ على مـا يعتقـده المخالف، وإذا لم يكـن عليه كان معنـى أغفلنا قلبه عن ذكرنـا أي صادفناه غافـلاً، عـلى ما مضى، وإذا صودف غافلا فقد غفل لا محالة، فكأنه – والله أعلم–: ولا تطـع مـن غفل قلبُـه عن ذكرنا واتبع هـواه وكان أمره فُرُطاً، أي لا تطـع من فعل كذا، وفعـل كـذا)) (ابن جنـي (د.ت)، 3/ 254–255)، وبهذا التحليل الوظيفي رسّـخ ابن جنـي أثـر الوحدة الصوتية الصغرى في توجيه الدلالة، فقـد أجرى موازنة وظيفية بين مقطع الواو المفتوحة، ومقطع الفاء المفتوحة ليحسـم الجدل اللسـاني، الذي انبنى عليه – بالنتيجة– حسم الجدل العقائدي بين الجبر والاختيار، فتلك وحدة صوتية أخرى، هي الواو المفتوحة، قد أسـهمت – نظريًّا في أقل تقدير– في حل النزاع العقائدي، على أساس صوتي وظيفي.

2 - **مقطع الواو المتحركة، والدالة الصفرية:**

اختلف المسلمون بشأن إمكان تأويل نص القرآن الكريم، فمنهم من قرر ذلك، ومنهم من ذهب إلى حصر التأويل بالله تعالى فقط، والموضع الذي دار خلافهم فيه هو قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّٰسِخُونَ فِى الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ آل عمران: ٧

وقع الخلاف بشأن وظيفة الواو المفتوحة الواقعة بين (لفظ الجلالة)، و(الراسخون)، فثمة فريق من المسلمين وقف على ((الراسخون في العلم يقولون آمنا به))، فعدَّ الواو المفتوحة دالة على العطف، وجملة ((يقولون)) في معنى الحال، كأنه قال: الراسخون في العلم قائلين، وذلك كقول الشاعر:

الريح تبكي شجوها.. والبرق يلمع في غمامه

أي: والبرق لامعاً.

وثمة فريق آخر وقف على (لفظ الجلالة)، فعدَّ الواو دالةً على الاستئناف، فيكون ((الراسخون)) مبتدأ، وجملة ((يقولون)) خبراً.

ويترتب على هذين التصنيف الوظيفي بناءٌ عقائدي خلافيّ شديد الأثر، فعلى القول الأول يتفرد الله تعالى شأنه، بتأويل كتابه العزيز، ولا يستطيع أحد من عباده ذلك، وينتفي -بالبناء على فهم كهذا- جدوى إنزال الكتاب إلى الناس، وعلى القول الثاني يحظى ((الراسخون في العلم)) بمعرفة التأويل (الزركشي، 1391م، ينظر: 272-273) (السيوطي (1974م)، 1974م، ينظر: 181و426) (الدرويش، 2002م، ينظر: 1/ 394-396)، وهو القول الأصح لكي تتحقق الفائدة من نزول القرآن الكريم؛ يقول النووي في شرح صحيح مسلم: ((إن الراسخين يعلمونه لأنه يبعد أن يخاطب الله عباده بما لا سبيل لأحد من الخلق إلى معرفته، وقد اتفق أصحابنا وغيرهم من المحققين على أنه يستحيل أن يتكلم الله تعالى بما لا يفيد والله اعلم)) (النووي، 1991م، 16/ 333)، ما

يعنـي أن الـواو المفتوحة جاءت دالةً عـلى العطف في الآية الكريمة، وليسـت دالة على الاستئناف.

ويُلحـظ بقوة أثر الدالـة الصفرية (الوقف)[1] في إنتاج هذيـن الموقفين المعرفيين[2]، فهي التي شكلت الوظيفة الدلالية لمقطع الواو المفتوحة.

هذه بعضُ مواضع الاختلاف العقائدي بين المسـلمين، التي جرى البحث بشـأنها على أسـاس تحليل وظيفة الوحـدات الصوتية الصغـرى، وقد أخذ -أحيانـاً- التمييزُ الثقافي المبني على أساسـها، بممارسـة مديات قهر ديني قصوى، ناقضة لدعوى الثقافة التراحميـة التي تنادي بها الحضارة الإسـلامية، فقد أُدرجت هـذه الخلافات (الصوتية) ضمن آليات التكفير، أو التبديع المتبادل بين الفرق الإسلامية، لتكون وسيلة ضاغطة، من بين وسـائل أخرى، لتحقيق الغلبة السياسـية لفرقة إسـلامية ما على فرقة إسـلامية أخـرى، عن طريـق القهر الثقـافي للضمير، وتسـقيط خيارات الآخر، غـير المطابق في النمط العقائدي.

ثامناً: الوحدات الصوتية الصغرى والنزاعات البشرية

مـن شروط قيام الوحـدات الصوتية الصغرى بالوظائـف الرمزية خصيصة كونها صفـة لفئة من فئات مجتمع لغوي كبير، وليس لمتكلـم واحد (كولماس، 2009م، ينظر: 195، و227)، فالاختلافـات اللهجيـة تتولى أحياناً وظيفة تحديد الفـوارق بين الفئات

(1) الوقـف: ((عبـارة عـن قطع الصوت عـن الكلمة زمناً يتنفَّـس فيه عادة، بنيَّة اسـتئناف القـراءة، لا بنيّة الإعراض، ويكون في رؤوس الآي وأوساطها، ولا يأتي في وسط الكلمة، ولا فيما اتصل رسماً)) الإتقان في علوم القرآن (السـيوطي) 186، أما الدالة الصفرية فهـي ((فراغ له دلالة معينة)) ينظر: ينظر المعجم الموحد لمصطلحات اللسانيات 172.

(2) وللوقـف؛ (الدالـة الصفريـة)، أثـر مهـم في توجيـه فهم النـص القرآني، من ذلـك مثلا: الآيـة الكريمة ((الرحمن على العرش اسـتوى))، ويقـول ابن الأنباري في شرح لسـاني علمي متقدم للعلامـة اللغوية على مستوى (العامـل النحـوي): ((العلامـة تكون بعدم الـشيء كما تكـون بوجـود شيء)) أسرار العربية (ابن الأنباري) 68.

الاجتماعية (د. هدسون، 1990م، 87)، وتصنيف الجماعات البشرية عبر تاريخ وجودها في هذا العالم، وتعد الخصائص اللهجية ضمن الأسلحة المتاحة المستثمرة بين الناس لتبادل التدمير الحسي، والثقافي، فـ ((اللغة أيضا تفعل وتدمر)) (لوسركل، 2006م، 401)، وتقدم سجلات الأنثروبولوجيا اللسانية العالمية مرويات صادمة عن مستويات من الصراع الدموي الذي دار بين جماعات بشرية على أسس شتى، كان من بين مظاهرها البارزة خلافات صوتية (فونيمية)، معبرة عن شروخ ثقافية عميقة بين الناس، كما يتبين من السرديات الثلاث الآتية، المختلفة جدًّا من حيث الزمان، والمكان، والانتماء الثقافي:

السردية الأولى: صراعات بني إسرائيل في العهد القديم:

جاء في (الكتاب المقدس) بعهده القديم، إنَّ حرباً أهلية طاحنة نشبت بين فريقين، من بني إسرائيل، هما: الجلعاديون والأفرايميون، وتقول الحكاية إنَّ الجلعاديين تمكنوا من قطع معابر نهر الأردن على بني عمِّهم الأفرايميين، فـ ((كان إذا أحدُ الهاربين من بني أفرايم قال: (دَعوني أعبرُ) يسأله الجِلعاديّون: (أمِنْ أفرايم أنت؟) فيُجيبُ: (لا)، فيقولون له: (إذن قُلْ شِبّولَتْ)، فيقولُ: (سِبّولَتْ)، غيرَ مُنتبهٍ إلى صحةِ لفظِها، فيقبضون عليه ويذبحونه على معابرِ الأردنِّ، فقتلوا في ذلك الوقت منْ أفرايم اثنين وأربعين ألفاً)) (الكتاب المقدس (العهد القديم والعهد الجديد)، 1995م، سفر القضاة، الإصحاح 12، الآية 6، ص331) (كالفي، 2008م، ينظر: 72) (كولماس، 2009م، ينظر: 227 و 683)[1]، فهذه حادثة دموية تصنيفية شرسة جدًّا، جرت في ظل نشاط لساني ثقافي، عماده الاختلاف في نطق فونيم واحد[2]، ومضمونه استبدال السين بالشين، في لفظة (سبّولت)، أي (سنبلة)، التي ينطقها الجلعاديون بالشين، وينطقها الأفرايميون

(1) وشِبُّولَتْ: هي السنبلة بلهجة الجلعاديين، ونظيرتها: سِبُّولَتْ بلهجة بني الأفرايميين. ينظر: الكتاب المقدس/ العهد القديم، حاشية ص 311.

(2) فصوت العلة القصير؛ (الكسرة) حيادي.

بالسين، ما مكّن الجلعاديين من تمييز (العدو)، من (الصديق)، فالشين فونيم كاشف عن حقيقة هوية طرفية لقبيلة مهزومة، وتسبب في جعلها تتعرض لمجزرة جماعية، أو (تطهير عرقي) بالمصطلح اللساني الحديث، على يد قبيلة أخرى منتصرة، من الجماعة العرقية نفسها.

السردية الثانية: صراعات كسب العيش في البحر الكاريبي:

ثمة بلد اسمه (الدومنيكان)؛ يقع في جزيرة (هيسبانيولا)، في البحر الكاريبي، ويتكلم سكانه الوطنيون اللغة الإسبانية، وقد حاول -في وقت سابق، قريب من عصرنا الحاضر- حاكمُه الطاغيةُ ترجيللو (Trujillo) طَرْد العمال القادمين من هايتي، التي هي بلدٌ يشاطر جمهورية الدومنيكان الجزيرة نفسها، لكنه يتكلم الفرنسية. وتقول القصة إنَّ رجال الشرطة الدومنيكان كانوا يطلبون من العمال السود الهاييتيين أن يلفظوا اسم الحاكم (ترجيللو)، لكي يميزوهم عن العمال السود المحليين؛ وذلك لأن (جيمـ)ـه تُلفظ (ياءً) في اللغة الإسبانية، وهذا الأمر مُشْكِل جدًّا على العمال الهايتيين الذين يتكلمون الفرنسية، مما يؤدي إلى فشلهم في اختبار كشف الهوية من حيث لا يعلمون (كالفي، 2008م، ينظر: 73).

وثمة رواية أخرى تختلف قليلاً عن هذه الرواية، لكنها تعتمد المبدأ التمييزي نفسه، ولعل ما فيها من اختبار فونيمي كان قد استعمل بشكل موازٍ لنظيره المستعمل في الرواية السابقة، فمن المعروف أنه يصعب نطق صوت الراء على متكلمي الفرنسية، وهذا هو حال العمال السود الهايتيين نفسه، اللاجئين إلى بلاد الدومنيكان، في المقابل يستطيع العمال السود المحليون الدومنيكان نطق صوت الراء دونما مشكلة، و ((قد دفع هذا تروجيللو بساديته المعروفة إلى أن يأمر بأن يطلب من جميع المعتقلين أن يتلفظوا بكلمة بِرْرو (perro) التي تعني الكلب في الإسبانية، وكان يُقتل كلَّ مَنْ تلفظ بها بِغْغو (pego))) (كالفي، 2008م، ينظر: 73-74)، وهاتان الروايتان تؤكدان استثمار الوحدات الصوتية الصغرى للتمييز بين مجموعات من العمال المحليين،

والعمال الوافدين، الذين يعسر التميز بينهم من حيث الشكل الخارجي، فكلهم من ذوي البشرة الداكنة.

السردية الثالثة: معارك الحرب الأهلية العراقية

جرت في مرحلة ما بعد سقوط حكم الرئيس العراقي الأسبق صدام حسين، حادثة مطابقة للحادثة التوراتية، لكنها ضئيلة الحجم بالقياس العددي، حدث ذلك في النصف الثاني من العشرية الأولى، من القرن الحادي والعشرين الميلادي، عندما احترب العراقيون فيما بينهم على أسس ثقافية (طائفية)، ففي أحد الحواجز العسكرية المزيفة التي أقامتها (جماعة تكفيرية مسلحة) على الطرق السالكة بعيداً عن مركز بغداد؛ (العاصمة)، قام عدد من أفراد تلك (الجماعة) بإيقاف سيارة أجرة، وإنزال مَنْ فيها، ووضعوا امتحاناً (فونيميًّا) لصبيين اثنين من الركاب[1]، فسألوا الأول: ما طعامُ البُلبُل؟ فكان الجواب: (عِنَب) بكسر العين، فأوقفوه على جهة من الطريق، أما الثاني فقال: (عَنَب) بفتح العين، فأوقفوه على جهة أخرى من الطريق، ولأن النطقين يدلان على منطقتين جغرافيتين لطائفتين مسلمتين مختلفتين، قتل أفرادُ الجماعة المسلحة أحدَ الصبيين متيقنين أنه من الطائفة المخالفة لهم، وأطلقوا سراح الآخر ظانين أنه من طائفتهم هم، وقد حدث هذا كله بسرعة، في جوٍّ من التوتر العسكري والأمني، وما لم تعلمْه تلك (الجماعة المسلحة) أن هذين الصبيين أَخَوان من أب واحد، وأم واحدة، وأن التداخل السكاني في العاصمة بغداد، يسمح بتداول اللهجتين في البيئة اللغوية الطرفية الواحدة، بل في الأسرة النووية الواحدة، كما يسمح بالتمازج الطائفي على مستوى الحي الواحد، والأسرة النووية الواحدة، على أن هذا (السماح) لا يعني بالضرورة – ومن منظور لساني أنثروبولوجي– ذوبان الشعور بتفوق بعض اللهجات

(1) كانت الأسماء تستعمل أحياناً بوصفها دالةً تمييزية على انتماء الناس. وثمة حادثة مشابهة للحوادث الثلاث الماضية، حصلت في صقلية الإيطالية، في العام 1282 الميلادي، وهي لا تخرج –من حيث البنية الثقافية المحركة للأحداث–عن هذه الحوادث الثلاث، ينظر: حرب اللغات والسياسات اللغوية (كالفي) 72–73.

المتداخلة على بعضها الآخر، فقد يُستعمل النمطان النطقيان في الأسرة الواحدة، مع بقاء الشعور بتفاوت القيمة الاجتماعية بينهما.

نستخلص من هذه السرديات الثلاث المتباعدة في الأزمنة والأمكنة والثقافات أثر اللغة البشرية، بوحداتها الصوتية الصغرى في إدارة عدد من الصراعات البشرية، التي وصل بعضٌ منها إلى مستويات متطرفة في القتل والتنكيل، كما أن تشابه الحوادث على اختلاف الزمان والمكان يدفع باتجاه القطع بوجود بنية ثقافية ذات مستوى بشري عام، مُحيلةٍ على وحدة الجنس البشري في عدد مهم من السمات الثقافية المشتركة.

تاسعاً: القمع الصوتي (الفونيمي) في الثقافة العربية

تخرج بعض فئات المجتمع اللغوي الواحد، على صيغ الكلام المعتبرة، خروجاً اضطراريًّا ناتجاً عن أسباب خلقية، ونفسية، ويتمظهر خروج كهذا بجملة من الظواهر النطقية المعقدة، ذات التركيبة الصوتية (الفونيمية)، كاللكنة، واللثغة، والفأفأة، والتأتأة، والحُكلة، والرُّتّة، وتتعرض الفئات المعنية بالأمر لممارسات تعسفية مجتمعية ظالمة، تُطيح بثبات وجودها بين الناس، وتحرمها من صفة (الإنسان الطبيعي).

ويتنوع ضحايا هذا النوع من العنف الصوتي (الفونيمي) بتنوع الأنشطة البشرية، التي قد يكون حصرها مطلباً عسير المنال، ويقدم العالم الأنثروبولوجي العربي الرائد؛ أبو عثمان الجاحظ مرويات لسانية فذة في هذا الشأن الإنساني الخطير، تمنحنا قدراً جيدًّا من المعرفة بحقيقة البنى الثقافية الفاعلة في المجتمعات العربية الأموية والعباسية القديمة، من ذلك مثلاً نصّ الاختبار الصوتي (الفونيمي)، المستعمل آنذاك في الكشف عن الحقيقة العرقية، والثقافية، للجواري المعروضات للبيع في سوق النخاسة، ليتحصل من وراء ذلك معرفة التسعيرة المناسبة للجارية؛ يقول الجاحظ: ((النخاس يمتحن الجارية إذا ظن أنها رومية، وأهلها يزعمون أنها مولدة، بأن تقول: ناعمة، وتقول: شمس ثلاث مرات متواليات)) (الجاحظ (255هـ)، 1998م، 1/ 71)، فالجارية الرومية ستقول:

(نائمة) لأنها غير قادرة على نطق صوت العين، كما أنها ستخفق في اختبار تكرار كلمة (شمس)، فتقول: (سمس) حتى لو تدربت على النطق الصحيح، لأن التكرار سيوقعها في الخطأ، فتظهر لكنتها الأجنبية، ما يعني أن اللكنة التي هي ضعف قدرة غير العربي على الكلام بالعربية (ابن منظور، ينظر: 13/ 390)، تكون سبباً في كشف حقيقة الانتماء العرقي للجارية الرومية، أمام التاجر العربي المسلم، ما يجعل من ثمن بيعها منخفضاً، قياساً بالجارية المولّدة في ديار المسلمين، التي كانت آنذاك هي النوع المرغوب فيه أكثر من سواه، في زمن الجاحظ، المتوفى في سنة 255 من الهجرة، وبذلك يكون الاختبار الصوتي (الفونيمي) وسيلة تثمين مثلى في مساومة البيع والشراء.

أما الممارسات القمعية التمييزية المرتبطة بالظواهر المتبقية كاللثغة، والفأفأة، والتأتأة، والحُكلة، والرُّتّة، فقد تكون أشد وطأة من وطأة التقييم على وفق اللكنة الأجنبية، لأنها مُقترَفة -بشكل ممنهج واسع النطاق- بحق أفراد من البيئة اللغوية نفسها، بمعنى وقوع أثرها على أفراد المجتمع اللغوي المحلي، وهو ما يجعل الحال صراعاً مجتمعيًّا قمعيًّا تسقيطيًّا، بين بنية فونيمية معيارية راقية متحكمة، تتموضع في أعلى السلم الاجتماعي، وبنية فونيمية استثنائية، أو طارئة، مذمومة، ومهانة، ومحتقرة، تنحدر بأصحابها إلى مستويات دنيا في الحضور والمكانة بين الناس.

وتمنحنا المعجمات العربية -بحكم استقائها المعلومات، من الواقع الثقافي المباشر- الخيارات التعريفية الفضلى، للكشف عن نظرة المجتمع الثقافية لهذه الظواهر الصوتية.

فاللُّثْغـةُ: هي أَن تَعْدِلَ الحرْفَ إِلى حرف غيره، والأَلْثَغُ الذي لا يستطيع أَن يتكلم بالراء، وقيل هو الذي يجعل الراء غيناً، أَو لاماً، أَو يجعل الراء في طرَف لسانه، أَو يجعل الصاد فاءً، وقيل هو الذي يَتَحَوَّلُ لسانه عن السين إلى الثاء (ابن منظور، 8/ 448).

والفأفأة: غَلَبَةُ الفاءِ على الكلام، والفَأْفاءُ على فَعْلالٍ الذي يُكْثِر تَرْدادَ الفاء إِذا تَكلَّم (ابن منظور، 1/ 119).

والتَّأْتَأَةُ: التردد في التاء عند الكلام (ابن منظور، 1/ 40).

والحُكْلة: هي كالعُجْمة، لا يُبين صاحبُها الكلام، والحُكْلة والحَكِيلة اللُّثْغة، وحَكَل عليه الأَمرُ وأَحْكَل واحْتَكَل التبَس واشتبه (ابن منظور، 11/ 162).

والرُّتَّة: عَجَلة في الكلام، وقِلَّة أَناةٍ، وقيل: هو أَن يقلب اللام ياء، والرُّتَّة رَدَّة قبيحة في اللسان (ابن منظور، 2/ 32).

هذه طائفة واسعة من مشكلات النطق، المتحدرة عن أسباب خلقية، ونفسية، وتبدو متشكلة من بنيات صوتية من نوع المقطع القصير، أي من الحروف المتحركة، على وفق الدرس الصوتي العربي، لكنها في الحقيقة فونيمات فقط، فمن يلثغ بالراء مثلا، محوِّلاً إياها غيناً، فيقول (غَمْل)، بدلاً من (رَمْل)، هو في حقيقته يواجه مشكلة في نطق فونيم الراء، أما المصوت القصير (الفتحة) التابع له فليس ثمة مشكلة فيه.

وكيفما كان الحال فإن الوصف السلبي لهذه الظواهر يكرِّس قوة الفرز المجتمعي للمصابين بها، ووقوعهم المحتم تحت سلطة (الرقيب اللغوي الصوتي)؛ يقول الجاحظ: ((اللثغة التي في الراء إذا كانت بالياء فهي أحقرهنَّ وأوضَعُهنَّ لذي المروءة)) (الجاحظ، 1998م، 1/ 36)، فالعيب النطقي في فونيم الراء يتسبب في وَسْم صاحبه بالحقارة، والوضاعة، ويحطّ من شأنه بين الناس، وحسبنا لفظتا: (الحقارة)، و (الوضاعة) لندرك مستوى الذم، والتسقيط في مسألة كهذه.

ولم ينجُ من سلطة (الرقيب اللغوي الصوتي) شخصٌ مِن مثل واصل بن عطاء؛ الزعيم المعتزلي المعروف، لأنه كان يلثغ بالراء، ولم تشفع له مكانته العلمية، والخطابية من الخضوع لنقد معايير السلامة الصوتية؛ قال الجاحظ: ((كان واصل بن عطاء قبيحَ اللثغة شنيعَها)) (الجاحظ، 1998م، 1/ 16)، وقال عنه أبو العباس المبرد: ((أنه كان ألثغ، قبيح اللثغة في الراء)) (المبرد (285هـ)، 1997م، 1/ 237)، ولذا اجتهد في تنقية كلامه منها، مستعملاً مهاراته اللغوية، ومعرفته بالمترادفات العربية، ولا يفطن لذلك

أحد لاقتداره وسهولة ألفاظه (المبرد، 1997م، يُنظر:1/ 237)، فكان يقول: القمح بدلاً من البُر، والغيث بدلاً من المطر (الجاحظ، 1998م، 1/ 21-22)، ما يعني أن (واصلاً) هذا كان يخشى القمع الاجتماعي، فوجد في كثرة المرادفات العربية للكلمة الواحدة سبيلاً لنجاته من سطوة التصنيف الصوتي.

وقد وصلت عناية (الرقيب اللغوي الصوتي) مديات بحثية قصوى، حتى دُوِّنت أحداث منزلية عارضة، وقعت في شؤون يومية عربية أسرية، ربما لا تهم أحداً من الناس، فقد رُوي أن رجلاً طلّق امرأته لأنها (لثغاء)، مع أن أبغض الحلال عند الله تعالى الطلاق، فالرجل؛ بطل الرواية، خاف أن تأتيه تلك المرأة بولد ألثغ (الجاحظ، 1998م، 1/ 57)، ومن ذلك أيضاً ما روي عن جارية للشاعر جرير بن عطية الخطفى، أنها قالت لصبيانها: ((وقع الجُرْدان في عِجان أمِّكم، فأبدلت الذال من الجرذان دالاً، ... وجعلت العجين عجاناً)) (الجاحظ، 1998م، 1/ 73)، ويبدو أن جريراً هذا لم يطلق المرأة، أو لم يبعها في سوق النخاسة، ربما لأن الحادثة وقعت في عصور مبكرة من تاريخ الإسلام، لكن هذه الحادثة دخلت كسابقتها في بطون الكتب العربية، وصارت إرثاً لسانيًّا أنثروبولوجيًّا متداولاً حتى يومنا هذا، مكتسبةً قوة حضورها من قوة الرقيب الصوتي، المدافع عن بنية معيارية في نطق أصوات الكلام.

إن قضية الرقابة اللغوية الصارمة تبرز قوة حضور اللغة في الحياة الاجتماعية، فاللغة هي ((الحقيقة الاجتماعية بأوفى المعاني)) (فندريس، 1950م، 10، وهذا النص مستعمل في موضع سابق)، كما قال جوزيف فندريس، و ((استعمال اللغة أشد صور السلوك الاجتماعي شيوعاً)) (فيركلِف، 2016م، 16)، ولا يقتصر وجود (الرقيب اللغوي) على ثقافة الأزمنة العربية القديمة فقط، ففي العصور الحديثة، وعلى مستوى الثقافات البشرية كافة، يبدي (الرقيب اللغوي) المتمثل بالآباء، والمعلمين، اهتماماً فائقاً بنمط نمو الكلام لدى الأطفال الصغار، ربما يفوق الاهتمام بأنماط النمو الأخرى؛ يقول الأستاذ توماس سكوفل: ((نظراً لأن اللغة عنصر أساسي في الاختلاط الاجتماعي

بـين البشر، فإن القائمين على رعاية الأطفال يوجهون اهتماماً زائداً عن المعتاد إلى كلام الطفـل مقارنـة بجوانـب نموه الأخـرى. ونفس هذيـن الوالدين، أو هـؤلاء المعلمين الذين ينتقدون طفلاً ذا أربع سـنوات عندما يقول بدون خجل (p–p–p–please) (م – م – من فضلك!) من غير المرجح أنهم سـوف يعلقون على طريقة مشي هذا الطفل، التي قد ينقصها التناسـق والاعتدال على سبيل المثال)) (سـكوفل، 1424هـ، 152)[1]، وبنظـرة مقارنـة سريعـة بين هذا النـص، ونصوص أبي عثمان الجاحظ يتبـدى لنا خطٌّ معرفيّ مشترك ينتظم –على اختلاف الزمان والمكان– الثقافة

العربيـة القديمـة، وثقافة بشريـة راهنة واحدة في أقـل تقدير، هي الثقافـة الغربية، والخـط الـذي ينتظم هاتـين الثقافتين –كما تحـدث الجاحظ، وتوماس سـكوفل– يولي عنايـة فائقـة جدًّا للغة، وأثرها العميق، حتى بمكوناتها الصوتية الصغرى، في تشـكيل الهيأة الاجتماعية، وطبيعة توازنات القوى بين الناس.

عاشراً: خاتمة

تستشري الرغبة التصنيفية لدى البشر بأقسى أشكالها، وبدون توقف، على مستوى الجماعات الرئيسة، والجماعات الثانوية، وعلى المستوى الفردي داخل الجماعة الواحدة، بصيغة ممارسات لغوية شديدة التعسف، فما دام الوجود منقسماً بين (الأنا)، و (الآخر) فـلا مناص من تثبيت الاختلاف بـين (الفريقين)، بوصفه منقبة وجودية (أنطولوجية) للـ (أنا)، ومثلبة كونية للـ (آخر).

وإذا كان الأمر شـائعاً على مسـتوى التصنيف اللسـاني بصيغة أسـماء الأعلام، كما هي الحال في ثنائية العرب والعجم، والإغريق والبرابرة، واليهود والأغيار، فإن النظر في الوحدات الصوتية الصغرى يكشـف أنواعاً أخرى من وسـائل التصنيف العرقي، والثقافي: الجماعي، والفردي، التي يأبى البشر (المتكلمون) إلا توظيفها من أجل المزيد

(1) والأستاذ سكوفل من جامعة سان فرانسيسكو الأمريكية.

من الاختلاف، وقمع الآخر، حتى يصل مدى التأثير إلى تبادل التسقيط المتبادل داخل البيئـة اللغويـة الواحدة، وإذا كان هذا الحال يمثل موقفاً فونيميًّا قاسـياً من الحياة، فإنه يمثل من جهة أخرى جزءاً ساخناً من سحر اللغة، وقدرتها على الفعل والإنجاز.

- انتهى -

المراجع

إبراهيم أنيس. (2003م). في اللهجات العربية. القاهرة.

أبي عثمان ابن جني (392هـ). ((د.ت)). الخصائص، تحقيق محمد علي النجار. المكتبة العلمية.

إديث كريزويل. (1993م). تعريف بالمصطلحات الأساسية الواردة في كتاب «عصر النهضة» مستل من كتاب عصر البنيوية (ط1). (جابر عصفور، المترجمون) الكويت: دار سعاد الصباح.

الدكتور صبحي الصالح. (2004م). دراسات في فقه اللغة (ط16). بيروت: دار العلم للملايين.

ألسندرو دورانتي. (2013م). الأنثروبولوجيا الألسنية (ط1). (فرانك درويش، المترجمون) بيروت: المنظمة العربية للترجمة.

الكتاب المقدس (العهد القديم والعهد الجديد) (المجلدات الإصدار الثاني، ط4، العهد الجديد- الإصدار الرابع ط 30، 1993م.). (1995م). دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط، جمعية الكتاب المقدس في لبنان، العهد القديم.

المعجم الموحد لمصطلحات اللسانيات (إنجليزي، فرنسي، عربي). (2002م). المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، الدار البيضاء.

بيير بورديو. (2007م). الرمز والسلطة (ط3). (عبد السلام بنعبد العالي، المترجمون) المغرب: دار توبقال للنشر، الدار البيضاء.

توم بوتومور. (1998م). مدرسة فرانكفورت (ط1). (يعد هجرس، المترجمون) طرابلس/ ليبيا: دار أويا للطباعة والنشر والتوزيع.

توماس سكوفل. (1424هـ). علم اللغة النفسي. (د. عبد الرحمن بن عبد العزيز العبدان، المترجمون) الرياض/ السعودية: جامعة سان فرانسيسكو، الولايات المتحدة.

ج. فندريس. (1950م). اللغة. (تعريب: عبد الحميد الدواخلي، ومحمد القصاص، المترجمون) مكتبة الأنجلو مصرية، مطبعة البيان العربي.

جان جاك لوسركل. (2006م). عنف اللغة (ط2). (د. محمد بدوي، المترجمون) بيروت.

جلال الدين السيوطي (911هـ). (1974م). الإتقان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو فضل إبراهيم. الهيئة المصرية العامة للكتاب.

د. أحمد مختار عمر. (1997م). دراسة الصوت اللغوي. القاهرة: عالم الكتب.

د. إنعام فؤاد عكاوي. (1997م). المعجم المفصل في علوم البلاغة، مراجعة: أحمد شمس الدين

(ط2). بيروت، لبنان: دار الكتب العلمية.

د. رشيد عبد الرحمن العبيدي. (2007م). معجم الصوتيات. بغداد: ديوان الوقف السني، مركز البحوث والدراسات الإسلامية.

د. سمير شريف استيتية. (2008م). اللسانيات: المجال، والوظيفة، والمنهج (ط2). إربد/ الأردن: عالم الكتب الحديث، وجدارا للكتاب العالمي، عمان/ الأردن.

د. عبد الوهاب المسيري. (2006م). موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية (ط3). القاهرة: دار الشروق.

د. هدسون. (1990م). علم اللغة الاجتماعي (ط2). (د. محمود عياد، المترجمون) القاهرة: عالم الكتب.

دنيس كوش. (2007م). مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية (ط1). (د. منير السعيداني، المترجمون) مركز دراسات الوحدة العربية.

رومان جاكوبسن، و موريس هالة. (2008م). أساسيات اللغة، ترجمة: سعيد الغانمي (ط1). بيروت: كلمة والمركز الثقافي العربي، والدار البيضاء.

عبد القادر عبد الجليل. (2006م). المعجم الوظيفي لمقاييس الأدوات النحوية والصرفية (ط1). عُمان: دار صفاء للنشر والتوزيع.

غالب فاضل المطلبي. (1978م). لهجة تميم وأثرها في العربية الموحدة. الجمهورية العراقية: وزارة الثقافة والفنون.

فلوريان كولماس. (2009م). دليل السوسيولسانيات (ط1). (د. خالد الأشهب، ود. ماجدولين النهيبي، المترجمون) بيروت: المنظمة العربية للترجمة، بدعم من مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم، توزيع مركز دراسات الوحدة العربية.

لأبي البركات عبد الرحمن بن محمد بن أبي سعيد الأنباري (577هـ). (1957م). أسرار العربية، تحقيق محمد بهجت البيطار. دمشق: مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق، مطبعة الترقي.

لأبي الحسين أحمد ابن فارس (. (1997م). الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها (ط1). بيروت/ لبنان: دار الكتب العلمية.

لأبي العباس محمد بن يزيد المبرد (285هـ). (1997م). الكامل في اللغة والأدب، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم (ط3). القاهرة: دار الفكر العربي.

لأبي الفتح عثمان ابن جني (392هـ). (1993م). سر صناعة الإعراب، تحقيق: د. حسن هنداوي

(ط2). دمشق: دار القلم.

لأبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور. (بلا تاريخ). لسان العرب. بيروت: دار صادر.

لأبي زكريا بن شرف بن مري النووي. (1412هـ، 1991م.). صحيح مسلم بشرح النووي، موافق للمعجم المفهرس لألفاظ الحديث (ج:1، ط1). مؤسسة قرطبة للطباعة والنشر والتوزيع.

لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (255هـ). (1998م). البيان والتبيين، تحقيق: عبد السلام محمد هارون (المجلد ط7). القاهرة.

لعبد الرحمن جلال الدين السيوطي (911هـ). ((د.ت)). المزهر في علوم اللغة وأنواعها، تحقيق: محمد أحمد جاد المولى بك، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، وعلي محمد البجاوي (ط3). القاهرة: مكتبة دار التراث.

لويس جان كالفي. (2008م). حرب اللغات والسياسات اللغوية. (د. حسن حمزة، المترجمون) بيروت: المنظمة العربية للترجمة، بدعم من مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم، توزيع مركز دراسات الوحدة العربية.

ماري آن بافو، و وجورج إليا سرفاتي. (2012م). النظريات اللسانية الكبرى من النحو المقارن إلى الذرائعية (ط1). (محمد الراضي، المترجمون) بيروت: المنظمة العربية للترجمة.

مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي (817هـ). (1998م). القاموس المحيط، تحقيق مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، بإشراف محمد نعيم العرقسوسي (المجلد ط6). دمشق: مؤسسة الرسالة.

محمد بن بهادر بن عبدالله الزركشي. (1391م). البرهان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. بيروت: دار المعرفة.

محيي الدين الدرويش. (2002م). إعراب القرآن وبيانه (ط9). دار اليمامة للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق-بيروت، ودار ابن كثير للطباعة والنشر والتوزيع دمشق-بيروت، ودار الإرشاد للشؤون الدينية، حمص -سورية.

نورمان فيركلِف. (2016م). اللغة والسلطة، ترجمة: محمد عناني (ط1). القاهرة: المركز القومي للترجمة.

هارتمان، و ستروك. (2012م). معجم اللغة واللسانيات. (د. توفيق عزيز عبد الله، ومروان محمد حسن، وأوس عادل عبد الوهاب، المترجمون) بغداد: دار المأمون.